رأي في الشعر

الشعر لغةً الشعور وقد أخرج عن معناه الاصلي فأصبح يفهم منه الآن الكلام الموزون المقفى الذي يتوخى صاحبهُ ابداع خياله وشعوره فيه بصورة تستفز العواطف وتأخذ بمجامع القلوب وابتذله الاكثرون فأضحى حرفة يتعيش بها أحدهم ويعمد الى اكتسابها على طريقة علمية كأن يقرأ العروض والقوافي ثم يقبض على اليراع ويحاول صف كلام ملفق ليس من الشعر في شيء طمعاً في أن يقال عنه انه شاعر وما أحراه أن يدعى صفافاً فهو أشبه بمنضد الحروف في المطابع الا ان هذا يصف الحروف بقياس معلوم وطريقة مصطلح عليها وذلك يصف الكلمات حسب تفاعيل الخليل

الشعر شعور لا كلام والشاعر صاحب هذا الشعور يشعر بما لا يشعر به غيره ويسمع ما لا يسمعهُ غيره فعينهُ تخترق السحب وتسرح في فضاء العوالم وتأتي اليه بما لم يخطر على بال ، وخاطره يفترع أبكار المعاني التي لم يسبقهُ اليها أحد ، ووجدانهُ يختلف عن وجدان سائر الناس ، والنظرة التي ينظر بها الى العمران ليست كنظرة الناس . فكل نظم خالٍ من الخيال ليس حقيقاً أن يدعى شعراً ولا يمكن أن يعيش بعد صاحبهِ وربما مات قبله . وكم من شعر نُظم وكم من شاعر نَظم فوارتهما أيدي الزمان في مدافن النسيان

فالشعر لا يعيش الا اذا استوفى شرطين : أولهما أن يكون فيه شعور فائق وخيال بالغ ، وثانيهما أن يكون مسبوكاً في قالب متين المبنى موضح المعنى فالشرط الاول لا يتنازع فيه أحد ضرورة انه من مقتضيات الشعر وشرائطهِ الكبرى . نعم ان الشعر الذي لا شعور فيه ليس شعراً كما ان العلم الذي ليس فيه العلم الصحيح لا يعدّ علماً . وما أحسن لفظة « شعر » تفصح عن المراد من الشعر وهي لفظة حسن وضعها لما يقصد

منها تفضل لفظة « بوتري » الاعجمية لان هذه تعني الفعل وليس فيها ما يستشف منهُ المعنى المرغوب والشيء المقصود . أما الشرط الثاني فلأن اللغة واسطة لنقل خيال الشاعر الى الناس . وأحرى بهذه الواسطة أن تكون ممحصة من شوائب التعقيد ومعائب الالتباس . وكلما كانت اللغة صحيحة كان فهم الشعر سهلاً . فهي كالوعاء تودع فيها سوامي الفكر وسوانح الفطن . واذا كان الوعاء ناقصاً في شيء يوجب تمامهُ كان المودَع فيه خليقاً أن تذهب بحسنه عوامل الايام . وكم من نظم طوتهُ صحف الدهر لغير علة سوى انه أنشيء بعبارة تافهة تخالف القياس المألوف

ومن الناس من لا يذعن لهذا الشرط فيحسبون أن مراعاة اللغة في الكتابة سواء كانت نظماً او نثراً ليست ذات شأن فيقولون ان الغرض من اللغة ليس الا التفاهم فلا ينبغي أن يعنى بها كثيراً فيجوّزون لانفسهم ارتكاب اغلاط فادحة في النحو واللغة وسائر العلوم اللغوية ناسين أن التغاضي عن الاهتمام باللغة يؤدي بهم الى فوضى لا يرأب صدعها ولا سيما ان للُّغة العربية ضوابط تقيدها وقواعد تضبطها فاذا فسد التركيب فسد المعنى وبفساد التركيب تضيع اللغة وبفساد المعنى يغلط في فهم الافكار التي يقصد الشاعر نقلها الى قارئ شعره فينتج اذاً انه كلما كانت لغة الشعر ركيكة كان فناء الشعر المودع فيها سريعاً

يتضمن الخيال في الشعر وصف الانفعال الذي يطرأ على النفس اذا أدرك صاحبها في عالم الحس شيئاً يدعو الى الانفعال و باعثاً ينزع بهِ الى التأثر بحيث لا يستطاع معه الا الالتجاء الى الشعر للافصاح عما يكنهُ الفؤاد في صور كلامية يتجلى بها الخيال ويتجسم الشعور منتقلاً من عالم الخيال الى عالم المنظور ولا يتوخى في هذا الانتقال الا دفع ألم وسدّ مطلب من مطالب النفس تتقاضى صاحبها اتمامه كما قد تقتضيه تأديتها مطالب أخرى

ليس الشعر عملاً من الاعمال العادية التي يتكلفها الانسان ويضطره المعاش اليها فيسعى لنيلها . الشعر ينظم لنفسه لا لغاية أخرى ولا يكون شعراً الا اذا نظم أثر انفعال من حادث أو شعور واما اذا نظم على سبيل التفكهة و بدون داعٍ فيكون متكلفاً فيه والنفس مقسورة على ابرازه على حين يجب ان يكون منبعثاً من النفس باختيارها وقبولها فالشاعر الذي ينظم محمولاً على النظم بتيار الرغبة في الشهرة والنزوع الى الصيت لا يكون شعره شعراً . الشاعر كما قال بعض الاعاجم مخلوق لا مصنوع وحسبك عليه من حجة دامغة انك الشاعر المطبوع ينظم الشعر وهو صبي لا لغرض وانما يشعر بشيء فينطق بالشعر عفواً مستخدماً الفاظ الصبيان للتعبير عن خياله ثم يرتقي فيصبح اقدر على اظهار شعوره وينمو شعوره بنمو مركزه في الدماغ كما تنمو سائر القوى العقلية كلما تقدم الانسان في العمر وقد تبطئ سجية الشعر في ظهورها لعلة خارجية فتتأخر الى سن العشرين أو بعدها كما جرى لملتون الشاعر الشهير ولكنها ظهرت في أغلب الشعراء في سن الصبا وأعلى درجات الشعر وصف الطبيعة ففيه تظهر قريحة الشاعر بأعظم مظاهرها . يرى الشاعر في الوجود أموراً يتعذر على غيره رؤيتها ينظر الى سيار كأنه هبط عليه وحيٌ من العلى فينظم فيه المعاني الحسان على حين لو سئل غيره ان يصف السيار لما قال غير نجم منير . وفي أساطير الأولين ان بعض الأمم اعتقدوا بوجود قوة غيبية تلهم الشعراء وتوحي اليهم الشعر ولا توحيه لسائر الناس . وما يراه الشاعر في ظواهر الطبيعة يكون محجوباً تحت حجاب كثيف لا يرى الناس من ورائه شيئاً على انه يصبح شفافاً اذا نظر اليه الشاعر فيرى وراءه كنوزاً وركازاً . وقد عُني الافرنج بالشعر الوصفي فاجادوه ويتلوه في الحسن الشعر الذي يمثل الطبع البشري وما في الانسان من العواطف والاميال وما يتنازعه من الاشواق والشعور الذي يطرأ على الشاعر عند حدوث نكبة عامة وما شاكل ذلك وكل وصف بعث عليه انفعال عظيم

أما الشعر الرثائي فأحسنهُ ما نظم عن انفعال شديد كما وقع لشاعر الانكتار العظيم تنيسون حين نكب بفقد صديقه الحميم حلام المؤرخ المشهور فرثاه بقصيدة طويلة رنانة وصف فيها العواطف البشرية وصفاً دقيقاً وما استحوذ عليه من الغم في ذلك الخطب المؤلم . على ان الرثاء مبتذل الآن ، وكم من شاعر يرثي ميتاً لا يعرف سوى اسمه فيأتي شعره وأمارات التكلف بادية عليه ليس فيه الا معان تافهة سيقت النفس الى ابرازها سوقاً . والمدح أسقط الشعر لما فيه من الاختلاق ولاسيما اذا قصد منه جرّ مغنم أو دفع مغرم فيضطرّ الناظم أن يبتدع المعالي والمكارم وينسبها الى ممدوحهِ

ويبلغ الشعر المدحي أعلى درجةٍ في عصر البداوة ويأفل نجمهُ في عصر الحضارة حتى يكاد يكون معدوماً . وكان الشعراء يتخذون هذا النوع من الشعر وسيلة للزلفى من الامراء واستدرار العطايا من العظماء . والشعر الهجائي أرفع في نظري ان صح أن يكون لي نظر من الشعر المدحي وأقرب منه للغرض المبدئي من الشعر خصوصاً اذا نظم عقيب تهيج حاسة الاشمئزاز من ادراك شوائب ونقائص في المهجوّ تبعث الشاعر على الهجاء اضطراراً ، وأما اذا تكلف له فيكون من اعمال العقل لا من اعمال الشعور والعواطف . وقد علمت مما مرّ بك أن الشعر من خصائص العواطف وليس للعقل علاقة به ، ولذلك لا يعدّ من الشعر كل ما نظم من المعقولات والمنقولات ، ويدخل تحت هذا الاراجيز على تفاوت انواعها وآراء الفلاسفة التي أودعت في الشعر وآي الحكماء وعلماء الاخلاق . وبالجملة فان كل ما ليس له اتصال بالعواطف ليس شعراً وانما هو نظم ولا يتعذر على النبيه التمييز بين الشعر والنظم ان هو تذكّر معنى كلمة شعر . والله أعلم

يافا خليل الخوري